الحضر أم الحظر

الدكتور خالد اسماعيل علي
كلية الاداب

الحضر من مدننا الاثرية القليلة التي ما زال جانب كبير من خرائبها ورسومها شاخصا للعيان يشهد بتاريخ المدينة وحضارتها ، وما كان لها من قوة ويأس •

تقع خرائب الحضر اليوم في بادية جزيرة العراق ضمن لواء الموصل على بعد نحو ٧٠ كيلو مترا غرب القيارة التي على نهر دجلة ونحو ١٥٠ كيلو مترا جنوب غربي مدينة الموصل • ويبعد الآن وادي الثرثار نحو اربعة كيلو مترات شرق اطلالها •

كانت الحضر تحت نفوذ الامبراطورية البارثية (٢٤٧هـ - ٢٢٦م) ، الا انها كانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال في ادارة شؤونها ابتداء من مستهل القرن الأول الميلادي • وقد ازدهرت الحضر وسادت منذ ذلك التاريخ حتى سقوطها عام ٢٥٦م على يد الامبراطور الساساني شاهبور (سابور) الاول (٢٤١ - ٢٧٢م) بعد حصار مرير حسب رواية المصادر العربية (ابن هشام ، السيرة ١/٧١-٧٣ ، الطبري ٢/٤٧ - ٥٠) وعلى ما يرجح ايضا لما كان يعرف عنها من متانة اسوارها التي استطاعت بفضلها الصمود امام الحصار الروماني عام ١١٧ م بقيادة الامبراطور تراجان ، ومرة ثانية على عهد الامبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣-٢١١م) ومرة ثالثة ابان حكم الامبراطور كركالا • على ان نقض الحضر ولاءها للساسانيين وتحالفها مع الرومان في معركة شهرزور قرب السلمانية عام ٢٣٢ م دفع الامبراطور الساساني شاهبور الاول الى ضرب الحصار عليها وفتحها عنوة كما سلف القول Shanji Fukai, East and West, vol. 2, pp. 135-142 Rome 1960. Hatra

ماجد الشمس ، الحضر ، ص ١٢ الهامش ٨) •

ويبدو انه لم تقم للحضر قائمة بعد فتحها وانها قد هجرت تماما في القرن الرابع الميلادي •

كانت الحضر بحكم موقعها محطة تجارية مهمة تمر منها القوافل المصعدة من وسط العراق وسواده الى الشمال والى بلاد الانضول وبالعكس ، وتلك الذاهبة

من الشرق عبر بادية الجزيرة الى بلاد الشام وفلسطين والايبة منها الى العراق • وكانت الى جانب ذلك المدينة المحصنة الوحيدة في بادية جزيرة العـــراق ممـا اكسبها اضفة الى هيمنتها على طرق التجارة اهمية عسكرية خطيرة في زمن كان القتال فيه سجالاً بين البارثين ومن بعدهم الساسانيين من جهة وبين البيزنطيين من جهة اخرى • وكان باستطاعة الحضر تهديد مجنبة او مؤخرة اي جيش يقطع بادية جزيرة العراق سواء في ذلك الزاحف من العراق الى بلاد الشام او بالعكس• ولهذا السبب كان اباطرة الفرس والروم يجتهدون في ضمان ولائها او السيطرة عليهـــا •

ويستنتج من اسماء الاعلام العربية أو ذات الصيغة العربية التي وردت في كتابات الحضر ان العرب كانوا يشاطرون الاراميين سكناهم المدينة • أما لغـــة الكتابة السائدة فيها فقد كانت الارامية •

وردت الحضر في النصوص الارامية باسم חַטְרָא (= ح طر١ •

وهذا يؤيد تسميتها في الاغريقية باسم Hatra المشتق كما واضح من التسمية الآراميـــة •

وقد جاء ذكر هذا الاسم لأول مرة في النقوش على الحجر في الكتابة رقم ٩٧ ، السطر ١٤ ، الكلمة الرابعة (فواد سفر : كتابات الحضر ، سومر المجلد ١٧ ص ١٥) • وقد ورد ذكرها ايضا في بعض المسكوكات التي ضربت في هذه المدينة باسم « ح طر١/د ش م ش » أي الحضر [مدينة الاله] الشمس (المقالة السابقة ، الحاشية رقم ٣١) •

اما المصادر العربية فقد ذكرتها بالاجماع باسم « الحضر » بالضاد • وقـد ورد اقدم ذكر لهـا في الشعر الجاهلي في ابيات متفق في نسبتها لعـدي بن زيـد العَبادي واخرى منسوبة اليـه (توفي في نحو النصف الثاني من القرن السادس الميلادي) وللأعشى الكبير ميمون بن قيس (توفي في ٦٢٩م) وفي بيت اختلف في نسبته الى عمرو بن اللّة أو الجُدِي بن الدِلّهات وكـلاهمـا من الشعراء الجاهليـــين ايضـا •

والابيات التالية هي التي اتفق الرواة على نسبتها لعَدي بن زيد :ـ

والحَضْرُ صابت عليـه آسِيـه مِـــن ثُغرةٍ أيّـدٍ مناكبُهـــا

(ديوان عَدي بن زيد العَبادى ، حققه وجمعه محمد عبدالجبار المعيد ، ١٧/٥ ص ٤٧)[٤]

ومن القصيدة ذاتها :ـ

وصوّر الحضرُ واستُبيحَ وقدْ أُحرقَ في خدرها مشاجبُها

(المصدر السابق ٢٣/٥ ص ٤٨)[٥]

ومن رائية عدى المعروفة البيت التالي :ـ

واخو الحضرِ اذ بناه واذا دجـ ـلة تُجبَى اليه والخابورُ

(المصدر اسابق ٢٤/١٦ ص ٨٨)[٦]

والبيت التالي هو أول بيتين لعَدي :ـ

أقفرَ الحضرُ من نَضيرةَ فالمر باعُ منها فجانبُ الثرثارِ

(المصدر السابق ١/٦٧ ص ١٣٥)

ومن الابيات المنسوبة لعدى ولغيره :ـ

وارى الموتَ قد تدلى من الحضـ ـرِ على ربِّ أهلِه الساطَرُونِ

وقد نسب في ياقوت م/حضر لعدَي ، ولأبي داود الايادى في اللسان م/سطر والطبري ٤٧/٢ وديوانه ٣٤٧ ، وبدون نسبة في ابن خلدون ٢٥٤/١ ، وابن هشام في السيرة ٧١/١ لأبي دؤاد الايادى ويقال لخلف الاحمر ويقال لحماد الراوية .

(المصدر السابق ١٦٣ ص ٢٠٥)

والبيت التالي لاعشى قيس :ـ

ألمْ ترَي الحَضْرَ اذ اهلُهُ بنُعمَي وهَلْ خالدٌ من نَعِمْ

(ديوان الاعشى ، شرح وتعليق الدكتور م . محمد حسين ٦٠/٤ ص ٤٣)[٧] . وعن ابن هشام ٧٢/١ والطبري ٤٨/٢ وياقوت ٢٨/٢ : ألمْ ترَ ....

وقد نسب البيت التالي في الطبري ٤٩/٢ لعمرو بن الة ، وفي ياقوت ٢٨٣/٢ للجُدَي بن الدِلهاث بن حُلوان القضاعي :ـ

فهدّمَ من بروج الحضرِ صخرا كأن ثقالَه زُبَرُ الحَديدِ

والطبري يروى : فهدّم من أواسي ...

والذي يلفت النظر في الموضوع كله هو المرادف العربي للفظة חַטָּאת (= حطرا) الارامية وهو : الحضر بالضاد لا بالظاء كما هو متوقع ، وكما تفرض ذلك القاعدة الصوتية المعروفة في فقه اللغات السامية • فالقاعدة هذه التي اثبتت بالأستقراء بعد مقابلة عدد كبير من الكلمات في شتى اللغات السامية بعضها مع بعض تفرض ان كل ضاد عربية تقابلها في الارامية « ع » (وفي احوال نادرة جدا « ق ») ، وفي العبرية والاكدية « ص » • أما الظاء فيقابلها في الارامية «ط» وكذلك في العبرية والاكدية • ويمكن توضيح هذه القاعدة الصوتية عن طريق المخطط التالي :ـ

اللغة	الحرف	
العربية	ض	ظ
الارامية (والسريانية)	ع (ق)[٨]	ط
العبرية	ص	ص
الاكدية	ص	ص

وللتمثيل على هذه القاعدة لا التدليل عليها نورد النظائر التالية :ـ

المجموعة (١) « ض » عربية = « ع » آرامية

العربية	السريانية	الارامية اليهودية	العبرية
ضَأْن	ܥܐܠܐ	. . .	כֶּבֶשׂ
ضَب	ܥܟܐ	. . .	. . .
ضَأْن	ܥܢܐ	. . .	צֹאן
ضَرّة	ܥܦܝܐ	. . .	צָרָה
ضِرس	ܥܦܥܐ	. . .	. . .
ضَاق	ܥܩ	עָקַק	. . .
رَبَض	ܪܒܥ	. . .	רָבַץ
رَضِي	ܪܥܐ	. . .	רָצָה
فَرَض	ܦܪܥ	. . .	. . .
قَبَض	ܩܒܥ	. . .	קָבַץ

المجموعة (٢) « ظ » عربية = « ط » آرامية

العربية	السريانية	الارامية اليهودية	العبرية
عاظَلَ عَظِل	ܥܛܠ ܥܛܠ	עטל	עצל
عَظْم	ܥܛܡ	...	עצם
ظَبي	ܛܒܝ	...	צבי
ظُهر	ܛܗܪ	טהרא	צהרים
ظِل	ܛܠܠ	טולא	צל
ظِلع	ܛܠܥ	טלא	צלע
ظَن	ܛܢ	...	...
ظَعَن	ܛܥܢ	...	צען
ظفر	ܛܦܪ	טפרא	צפרן
ظلم	ܛܠܡ	טלם	...

وهذه الالفاظ معانيها متماثلة أو متشابهة ولهذا اجتزأت بذكر النظائر العربية عن ذكر تلك المعاني •

نستنتج من هذا كله ان قاعدة ابدال الظاء العربية طاءً في الارامية والضاد العربية عيناً في الارامية هي قاعدة مطردة وليس لدينا ، على حد علمي ، مثل واحد على شذوذ عنها : الا في آرامية سنجرلي التي تساوي فيها الظاء العربية صادا كما في العبرية كذلك وذلك في كلمات معدودة مثل قَيظ = קיץ (٩) .

وقد ذكر الاستاذ فواد سفر (سومر ٢ ج ١٧ ص ١٥ ، الحاشية ٣١) رأيا ينقله عنه الاستاذ ماجد الشمس في رسالته (الحضر ص ١٨) ونصه :

(لعل حرف الطاء « في اسم حطرا » كان يلفظ في الارمية بـ « طاء » مما يفسر الاسم الحضر في العربية) • وهذا الرأي غير مقبول لسببين :ـ

١ ـ كون حرف « الطاء » كان يلفظ « ظاءا » في الآرامية افتراض غير قائم على اساس لغوي معروف في اللغة الآرامية ، لأن حرف « الظاء » مفقود في اللغة الآرامية بجميع لهجاتها وليس من دليل على وجوده حتى الآن •

٢ ـ ان الافتراض السابق ، لو صح ، يفسر الحضر « بالضاد » في العبرية كما يقول الاستاذ فؤاد سفر كلام غير مقبول ايضا » اذ لو كان هناك « ظاءٌ » من

الآرامية لكان الحرف الذي يناظرها في العربية « ظاء » ايضا وليس « ضادا » •

اما لماذا ذكرت المصادر العربية اجمع بالضاد لا بالضاء فهو أمر في الحقيقة غريب لعلمنا شدة تحقيق اللغة الاوائل فيما يأخذون وممن يأخذون • والغريب في الموضوع ايضا انه لم يرد رسم آخر للحضر بالظاء في كتب اللغة التي افردت فصولا منها لذكر الالفاظ التي تروى بالضاد والظاء ككتاب الابدال لابي الطيب اللغوي[١٠] أو كتاب الفرق بين الضاد والظاء لمحمد بن نشوان بن سعيد الحميري[١١] ، أو كتاب الابدال والمعاقبة والنظائر لأبي القاسم الزجاجي[١٢] •

ان التعليل الوحيد لهذه الظاهرة يكمن في موضوع الخلط بين الضاد والظاء في النطق وهو موضوع قديم ، حتى لقد جاء في وفيات الاعيان لابن خلكان :

كان ابن الاعرابي يقول جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطيء من يجعل هذه في موضع هذه وينشد :-

الى الله اشكو من خليلٍ أودّه ثلاث خلالٍ كلّها لي غائضُ

بالضاد : ويقول : هكذا سمعته من فصحاء الاعراب (كتاب الابدال لأبي الطيب اللغوي الحلبي ج٢ ص ٢٦٧ ، الحاشية ١) • وهذا الخلط هو الذي دعا ابن مكي الى أن يقول :

« هذا رسم قد طمس ، وأثر قد درس من الفاظ جميع الناس خاصتهم وعامتهم • وهو باب واسع وأمر شاسع ان تقيصته اخرجت الكتاب عن حده » (تثقيف اللسان ٢٣ - ١ في لحن العامة للدكتور عبدالعزيز مطر ، ٢٢٦ ، الحاشية ١)[١٣] •

وقد الف في ابدال الضاد والظاء والفرق بينهما من اهل اللغة العديدة الأمر الذي يدل على شيوع ظاهرة الخلط هذه قديما • وممن ألّف في ذلك أبن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الذي الف ارجوزة في الضاد والظاء نشرها داود الجلبي في مجلة لغة العرب ٧/٤٦١ - ٤٦٣ ، والحريري (ت ٥١٦ هـ) الذي كتب قصيدة في الفرق بين الضاد والظاء وهي في المقامة الحلبية السادسة والاربعين (مقامات الحريري « ط بولاق » : ٢٧٦) ، والف ابن مالك كتابا سماه الاعتضاد في معرفة الظاء والضاد نقل عنه السيوطي في المزهر المواضع التي يتعين فيها الضاد والمواضع التي يتعين فيها الظاء المواضع المشتركة (المزهر ٢/٢٨٢ - ٨٥٢) راجع لحن

العامة للدكتور عبدالعزيز مطر ص ٢٢٦ •

وفي كتاب الابدال سابق الذكر (ج ٢ ص ٢٦٧ – ٢٧٢) ما يعطي صورة واضحة عن الموضوع •

اما من جهة النطق فأبدال الضاد والظاء ممكن لأتفاقهما في صفات الرخاوة والجهر والاستعلاء والانطباق وان اختلفتا في المخرج (الجزري ، النشر في القراءآت العشر ، ج ١ ص ٢٠٠ – ٢٠٣[١٤] ، الدكتور ابراهيم انيس ، الاصوات اللغوية ص ٤٨ – ٥٠)[١٥] ونحن مثلا في معظم انحاء العراق في ايامنا هذه نلفظ الضاد ظاءا • ولا اظن هذه الظاهرة حديثة بل لابد أن تكون نتيجة تطور قديم طرأ على نطق الضاد ونقلها بالتدرريج الى صفة الظاء ومخرجها •

والذي يقوى الرأي في موضوع الخلط بين الضاد والظاء في نطق (الحَضْر) هو أن هذا النطق أخذ عن عدَي بن زيد واعشى قيس وربما عن ابي داود الايادي وعمرو بن الة والجُدَي ابن الدِلهاث القضاعي وكلهم شعراء عاشوا في الحيرة او باديتها أو في بادية جزيرة العراق والشام أو عن اعراب هذه المناطق • ومعروف ان سكان هذه الانحاء كان يعسر عليهم التفريق بين الضاد والظاء وقد كان للقدماء رأيهم في شعر عَدي ففي هذا يقول ابن قتيبة « وعلماؤنا لا يرَون شعره حجة » (الشعر والشعراء ١٧٦) ويواصل قوله : والعرب لا تروى شعره لأن الفاظه ليست بنجدية •••• المصدر السابق ص ١٨٢ ، راجع نذير العظمة ، عَدي بن زيد ٩٩ – ١٠٠ •

اما معنى « حطرا » في الآرامية فهو من الاصل ح ط ر

وقد جاء في الآرامية اليهودية والسريانية لفظة חוטרא

(= ح و طرا) بمعنى الخطيرة ، اى المكان المسوّم المماشية بالاغصان والشجر لحمايتها من الوحش • وهذا الاصل يقابل في العربية الاصل « ح ظر » ويؤيد ما ذهبنا اليه •على اني اؤيد ان أنبه الى خطأ وقع فيه بعض المستشرقين ولم ينبه اليه من دروس هذا الموضوع •وذلك انهم لم يفرقوا بين חוטרא

(= ح و طرا) في الآرامية اليهودية والسريانية بمعنى : العصا • وهذه يناظرها في العربية كلمة (خِطْر) بمعنى : غصن ، وفي العبرية חטר ،

بمعنى العصا ، والتي تثبت فيها الطاء في جميع هذه اللغات لانها اصيلة غير منقبلة ، وبين חטרא (=ح و ط ر ١)في الآرامية اليهودية والسريانية باللفظ نفسه والتي بمعنى : الحظيرة.وهذه يناظرها في العبرية كلمة חָצֵר بالصاد بمعنى : فناء الدار وفي العربية : الحظيرة بالمعنى المعروف فتسري عليها بهذه القاعدة الصوتية المعروفة : ـ

ظ عربية = ط آرامية = ص عبرية .

وعليه ينبغي تصحيح ما جاء في موسوعة بروكلمان السريانية ص ٢٢٨[١٦] :

ومعجم ياكوب ليفي التلمود والمدراش ج٢ ص ٤٠[١٧]

ومعجم كولر ـ باوم كارتنرص ٣٢٥[١٨] . لعبرية التوراة .....

وهذا الاخير يجعل نظير كلمة חָצֵר العبرية « فناء الدار » كلمة חיר חظ السريانية وفي هذا خروج لامبرر له عن القاعدة الصوتية .

والحَظْر في العربية : الحَجْر والمَنْع بجوهر من الجواهر والاصل فيه بالحِظَار ، وهو حائط الحظيرة الذي يصنع من خشب او قصب . وقد عُمَّ الحِظَار حتى صار يعني الحظيرة التي تعمل للابل والاموال تحبس فيها . والحَظِر ايضا الشيء المُحتَظَر به أي الشوك والشجر الرطب (لسان ٥/٢٧٩)[١٩] . وفي هذا المعنى الاخير جاء في القرآن الكريم : « انّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المُحتَظِر » الآية ٣١ ، السورة ٥٤ .

وبخلاف ذلك فأنه يكاد يستعصي علينا اشتقاق اسم مدينة الحَضْر من الاصل (ح ض ر) . وقد فطن ابن فارس اللغوي المعروف الى شذوذ اسم مدينة الحضر عن المعنى العام للأصل اللغوي « ح ض ر » وهو : ايراد الشيء وروده ومشاهدته . فقال : « ومما شذ عن الباب الحَضْر وهو حِصْن » (مقاييس اللغة ٢/٧٥ ـ ٧٧)[٢٠] وابن فارس له حاسة دقيقة وملكة قلما تخطىء في تثبيت المعنى العام للاصل اللغوي واستخرج الشاذ عنه .

اما تاريخ نشوء الحضر واستيطانها فهو بلا شك ضارب في القدم يرجع الى العهد الاشوري كما يفيدنا بذلك الاستاذ فؤاد سفر في مقالته سالفة الذكر .

انني ارجو بهذا التحقيق الوجيز ان اكون قد وفقت في تصحيح خطأ شائع لصق سهوا بأسم مدينة من اجمل مدننا الاثرية وارجعت اليها مسماها الحقيقي .

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية . حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . قسمان ،الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م مصر شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي .
٢ ـ الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ... : تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . ودار المعارف ١٩٦١ . الجـــزء الثاني . سلسة ذخائر العرب ٣٠ .
٣ ـ ماجد عبدالله الشمش : الحضر ، مطبعة شفيق ـ ١٩٦٨ م .
٤ ـ ديوان عدي بن زيـد العبادي : حققه وجمعه محمـد جبـار المصيبد ، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م سلسة كتب التراث ٢ وزارة الثقافة والارشـاد . راجع ايضا : عدي بن زيـد العبادي ، شخصيته وشـعره لنذير العظمة دار مجلة شعر بيروت ١٩٦٠ ص ١١٧\١١ وكذلك عدي بن زيد العبادي: لمحمد علي الهاشمي . المكتبة العـربية بحلـب الطبعة الاولى ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م ، ص ١٥٧\١٠ .
٥ ـ عدي بن زيد العبادي : لنذير العظمة ... ص ٨٦\٨ ، عدي بن زيد ... لمحمد علي الهاشمي ١٥٨\٣ .
٦ ـ عدي بن زيد ... لنذير العظمة ... ص ١١٧\١١ .